شعر الخوارج

تحقيق

الدكتور إحسان عباس

الاستاذ المشارك بالجامعة الاميركية ـ بيروت

دار الثقافة

بيروت ـ لبنان

تمهيد

منذ أن كتبت الدكتورة سهير القلماوي رسالتها في « أدب الخوارج » وتصدى الاستاذ أحمد الشايب للحديث عن أدبهم في كتابه «الشعر السياسي في العصر الأموي»، لم يكتب فيهم ـ من الزاوية الأدبية ـ شيء آخر ذو بال، ولم يلق شعرهم وأدبهم عناية مجددة . وربما كان ذلك عائداً إلى أن الامثلة التي تستمد منها الأحكام النقدية ظلت محدودة في كميتها ، أو مبعثرة في مظانهـــا ، ولذلك رأيت أن أيسر للدارسين سبيل الاطلاع على الشعر الخارجي ، بجمع ما عثرت عليه من ذلك الشعر في المصادر المخطوطة والمطبوعة ونظمه في سلك واحد لعل ذلك يثير الى نظرة جديدة ، أو يحفز الى دراسة مستكملة . ولقد اتصل اكثر هذا الشعر بالاحداث التاريخية ، وهي أحداث متعددة متشعبة ، لا يتسع لها مجال الجمع والتقييد لانها تشغل صفحات كثيرة من تاريخ الطبري وأنساب الاشراف للبلاذري والكامل للمبرد والاعلام بالحروب الواقعـــة في صدر الاسلام للبياسي والعيون والحدائق لمؤلف مجهول ومصادر أخرى كثيرة ، فاذا وجد القارىء أني انتزعت هذا الشعر من بيئته فعذري الذي أتقدم به هـــو أنني لا أؤرخ لحركات الخوارج ولا لفرقهم الدينية ولا لمجادلاتهم العقائدية وأحكامهم الفقهية وانما أقدم صورة من شعرهم ـ صورة لا تتجاوز أهم فترة في نشاطهم السياسي، وانما تمتد فحسب من النهروان والنخيلة حتى موقعة الزاب .

ولم يكن اكثر هؤلاء الشعراء « محترفين » ـ إن جاز لنا ان نستعمل هذه الكلمة ـ ولذلك لا نجد لهم دواوين شعرية ، باستثناء اثنين هما عمران بن حطان والطرماح بن حكيم ، وقد وصلنا ديوان الثاني منهما ، ولم يصلنا من شعر الأول إلا القليل ، وربما كان قطري بن الفجاءة مكثراً من الشعر ، بحيث يجيء شعره في ديوان ، ولكننا لا

نعلم أحداً توفر على صنع ديوانه أو على روايته . وعلى ما كانت تشهده العصور السالفة من عصبية مذهبية وتطاحن عقائدي اهتم بعض الرواة برواية شعر الخوارج، ونال من تقديرهم نصيباً ، وهو وإن يكن شعراً جاء عفو الخاطر في اكثر الاحوال ، فانه كان يتميز بالصدق والاخلاص كما يتميز بالقوة وتلك صفات قربته الى نفوس الرواة وحببته الى قلوبهم . هو شعر يمثل صورة كبيرة لناحيتين تشغلان النظرية النقدية في جميع الأزمان وهما : التلازم الكامل ـ أو شبه الكامل ـ بين الفن والعقيدة ، والتلازم بين الشعر ونقد الحياة . ومن هاتين الناحيتين يبدو لى أن جمع الشعر الخارجي في نطاق ، يحمل في ذاته مكافأة على ما يبذل في سبيله من جهـــد ؛ وفي هاتين الحقيقتين سر قوة الشعر الخارجي وضعفه في آن ، ومن خلال هذه الصورة القائمة في نطـــاق محدد ، يستطيع الدارس أن يرى صفحة ذات سمات فارقة في تاريخ الشعر العربي .

بيروت في ٢٥ آب (اغسطس ١٩٢٣) **احسان عباس**

مقدمة

نظرة في شعر الخوارج

هذا لون من الشعر زهدي ثوري جامح ، يقدس الانسان الخارجي تقديساً عميقاً ، لأن كل إنسان ذهب في سبيل العقيدة يعد شهيداً ، فهو المثل الأعلى في نظر أصحابه بعد استشهاده ، وهو الذي يستحق الرثاء والبكاء مثلما أن الجماعة الخارجية هي العصبة المثالية التي تمثل الحق ، فهي اذن تستحق المدح والثناء ؛ ومن ثم كان موضوع هـــذا الشعر هو الانسان – الانسان الخارجي على وجه التحديد ، والمحرك الداخلي فيه هو روح التقوى المتطرفة ، فهو لذلك أدب قوي يزيد من قوته شدة التلازم بين المذهب الأدبي والحياة العملية ، ويقترن فيه الصدقان : الصدق الفني والصدق الاجتماعي .

وقد ترك فيه موضوع **الموت** لوناً حزيناً ونغمة حزينة ولكنه لم يسلمه الي يأس مطلق ، لأن هذا الموت نفسه كان عنـــد أصحاب ذلك الشعر نوعاً من الأمل ، إذ لم يعد الموت الا دخول الجنة أو لقاء الاخوان والاحباب الابرار الأتقياء الذين تقدموا على الطريق .

ومن ثم سيطرت على هـــذا الشعر وحدات ثلاث : وحدة الغايات ، ووحـــدة الخصائص ، ووحدة التيارات النفسية :

أمـــا وحدة الغايات فتمثل النقطة التي تلتقي عندهـــا أحلام كل واحد

مـــن أولئك الشراة وهي الاستشهاد في سبيل الله ، أو طلب الموت ويمثلها قول البهول :

من كان يكره أن يلقى منيته ... فالموت أشهى الى قلبي من العسل
فلا التقدم في الهيجـــاء يعجلني ... ولا الحذار ينجيني من الأجل

وأما وحدة الخصائص فهي مجموعة الصفات السامية التي يمكن أن تقـــال في كل خارجي صادق العقيدة ، ولذلك تشابه هؤلاء في الصورة العامة الكبرى ، وأصبـــح الشعر المقول في وصف الشاري لا يميز إلا باختلاف الاسماء لأنه لا فرق بين أبي بلال ومطر وصالح بن مسرح وداود بن النعمان والخطـــار ، فكل واحد فيهم يمكن أن يقال فيه ما يقال في الآخرين ؛ وهذه الخصائص تتمثل في كل فرد على حدة كما تتمثل في الجماعة :

متأهبون لكل صالحة ... ناهون من لاقوا عن النكر
صمت اذا حضروا مجالسهم ... من غير ما عيّ بهم يزري
متأوهون كأن جمر غضا ... الموت بين ضلوعهم يسري
لا ليلهم ليل فيلبسهم ... فيه غواشي النوم بالسكر
الا كرى خلساً وآونة ... حذر العقاب فهم على ذعر

وتتمثل في النثر كما تتمثل في الشعر ؛ يقول أبو حمزة في خطبته : « شباب والله مكتهلون في شبابهم ، غضيضة عن الشر أعينهم ، ثقيلة عن الباطل أرجلهم ، أنضاء عبادة وأطلاح سهر ، فنظر الله اليهم في جوف الليل منحنية أصلابهم على أجزاء القرآن ، كلما مرّ أحدهم بآية من ذكر الجنة بكى شوقاً اليها واذا مرّ بآية من ذكر النـــار شهق شهقة خوفاً منها ، كأن زفير جهنم بين أذنيه ، موصول كلالهم بكلالهم ، كلال الليل

بكلال النهار ، قـــد أكلت الأرض ركبهم وأيديهم وأنوفهم ، واستقلوا ذلك في جنب الله » [١] .

ويجدر بي أن أشير الى أن هذه الصورة تتنازعها الفرق الاسلامية جميعاً لأنهـــا « المثال » الذي يرمز الى **المؤمن** ؛ يقول الحسن البصري وهو يرسم صورة المؤمن عند أهل السنة : « ان المؤمنين قوم ذلل ، ذلت والله الاسماع والابصار والجوارح حتى يحسبهم الجاهل مرضى وانهم لاصحاء القلوب ، ولكن دخلهم من الخوف ما لم يدخل غيرهم ، ومنعهم من الدنيا علمهم بالآخرة ، فقالوا : الحمدلله الذي أذهب عنا الحزن ، والله ما حزنهم حزن الدنيا ، ولا تعاظم في انفسهم ما طلبوا به الجنة ، أبكاهم الخوف من النار ، وأن من لا يعتز بعزالله يقطع نفسه على الدنيا حسرات ، هذا نهارهم فكيف ليلهم ؛ خير ليل : صفوا أقدامهم وأجروا دموعهم على خـــدودهم يطلبون الى الله ـ جل ثناؤه ـ في فكاك رقابهم » [٢] . ويقول شاعر المعتزلة مصوراً أصحاب واصل ابن عطاء [٣] :

تراهم كأن الطير فوق رؤوسهم ... على عمـــة معروفة في المعاشر
وسيماهم معروفة في وجوههم ... وظاهر قول في مثال الضمائر
وفي قص هداب واحفاء شارب ... وكور على شيب يضيء لناظر

ويقول الشاعر الشيعي في وصف العلويين [٤] :

نهاركم مكابدة وصوم ... وليلتكم صلاة واقتراء

---

(١) البيان والتبيين ٣ : ١٢١
(٢) تفسير الطبري ١٩ : ٢٠ ـ ٢١ وانظر قولا آخر له في البيان والتبيين ١ : ٤٣
(٣) أغاني ٢٠ : ١١١
(٤) أغاني ٢١ : ٥٠

وليتم بالقران وبالتزكي فاسرع فيكم ذاك البلاء

وهذه الأمثلة تدل على مدى المشاركة بين مختلف الفئات الاسلامية في تصورهـــا للغاية المثالية في حياة الانسان ، وفي هذه الصفات خصائص زهدية قوية ، وهي تمثل صفات « الحاكم الزاهد » المثالي ، الذي يستطيع أن يحقق الخير ويصون الحقوق ويرعى الامانات ويقيم العدل ، واذا كان الرسول في الماضي مجتمع هذه الخصال ، فان «المهدي» في المستقبل هو صورتها المجسدة ، وتلك حقيقة سادت العصر الأموي ، أو عصر الثورة الخارجية .

وأما وحدة التيارات النفسية فتتمثل في الاتفاق على معاني **التلوم النفسي** عند أدنى شعور بالتقصير في جانب الوحدتين السابقتين : وحدة الغاية ووحدة الخصائص ؛ يقول الشاعر الخارجي :

ولقد مضوا وأنا الحبيب اليهم وهم لدي أحبـــة أبرار
قدر يخلفني ويضيهم بـــه يا لهف كيف يفوتني المقدار

ويقول شاعر آخر :

إخوان صدق أرجيهم وأخذلهم أشكو الى الله خذلاني لأنصاري

واذا كانت هذه الوحدات قد تركت طابعاً من الصدق العميق في الشعر الخارجي فانها أيضاً عملت على خلق التشابه والتكرار فيه ، وكان ضيق النطاق الذي فرضه الزهد على الشاعر يزيد من ذلك التكرار والتشابه ، ونستطيع أن نعتذر عن ذلك بقولنا: اننا حقاً نواجـــه صوراً مكررة ، ولكن كل صورة منها ـ على حدة ـ صادقـــة شعورياً ، أمـــا في شعر كشعر المدح مثلاً فالصور مكررة مفتعلة في آن معاً

اذن تتمثل الروح الدينية في هذا الشعر ، في الحماسة للعقيدة ، ولكنها تتجلى أيضاً في السعي لتقصير المسافة بين الله والانسان ، وهذا ما يظهر في تلك الاشعار التي تدور حول استطالة الحياة ومحاولة التخلص منها لأن ذلك يحقق شيئين: اللحاق بالله واللحاق بالاخوان والأصحاب ، وفي حدة الثورة على الوضع السيء يكمن الأمل في التخلص من هذه الحياة عند الخوارج ، أي أن الموت عندهم هو الدين الحقيقي ، ولذلك كان الشاعر الخارجي في صراع كبير مع الزمن، وسبيله للانتصار عليه هو الموت ـ موقف معكوس إذا نحن آمنا بالحياة الدنيا . قارن صراع الخوارج مع الزمن بصراع أتقياء أهل السنة له ، تجد أن أتقياء أهل السنة يؤمنون أن الصبر هو طريق النصر ، وقارنه مع الصوفية تجد أن هؤلاء يؤمنون بأن تقصير المسافة إنما يتم قبل الموت ، بالاتحاد أو الفناء ، أما الخوارج فيرون أن تقصير المسافة انتصار متوّج بالموت ؛ ومن أجل هذا التهافت على نار الموت ـ طواعية واختياراً ـ نجد لديهم تلك النغمة القوية التي تصور استطالة الحياة أي التبرم بانتصار الزمن ، اذ يقول الحويرث الراسبي :

أقول لنفسي في الخلاء ألومهـــا ... هبلت دعيني قـــد مللت من العمر
ومن عيشة لا خير فيهـــا دنيئة ... مذمة عند الكرام ذوي الصبر
سأركب حوباء الامور لعلني ... ألاقي الذي لاقى المحرق في القصر

وفي مثل هذا الموقف يكمن صراع حاد بين ميل للبقاء وميل للحاق بالاخوان الذاهبين ، وهو صراع طبيعي في الموقف الانساني، ومن صدق الخوارج أنهم لا يخدعون أنفسهم في مثل هـــذا الموقف وانما يصورون تعلقهم بالحيـــاة ، من خلال تصويرهم للملل الذي اعتراهم من ابتعاد الموت ، يقول زياد الأعسم في تصوير هذا الملل :

أقيم على الدنيا كأني لا أرى ... زوالاً لها وأحسب العيش باقيا

ويقول قطري :

إلى كم تغاريني السيوف ولا أرى ... مغاراتها تدعو الى حماميـــا

وفي الذروة من هذا المعنى قول عمران :

أفي كل عام مرضة ثم نقهـــة   ويَنعى ولا يُنعى متى ذا الى متى !!

وتقول امرأة من الخوارج :

أحمل رأساً قـــد سئمت حمله
وقد سئمت دهنـــه وغسله
ألا فـــتى يحمل عني ثقله

هنالك اذن هذه الغاية التي نستطيع أن نسميها « غاية الموت »، وهي التي تكيف الحياة عند الخوارج وتوجه الشعر والأدب عامة ، وقد ثارت عليها النزعـــة الانسانية ثورات ، مرة بتصوير جمال الحياة ، ومرة باللجوء إلى ضروب من الخذلان : كالقعود عن القتال وجعله مبدأ عقائدياً ، وكالهرب من وجه العدو ، وهو الذي عبر عنـــه شعراء الخوارج حين تحدثوا عن تنقلات قطري :

هربنا نريد الخفض من غير علة   وللحرب نار لا تفل ومخلب
فقولا لأصحاب القران نصيحة   دعوا الظن ان الظن بالناس يكذب

* * *

أيا قطري الخير ان كنت هارباً   ستلحقنا عاراً وأنت مهاجر
فحتى متى هذا الفرار مخافـــة   وانت وليّ والمهلب كافر

ومن ضروب الخذلان أن يستبيح الخارجي مجالسة « الأمراء » الذين يراهم

الخوارج ظالمين ، مثلما فعل سميرة بن الجعـــد حين أخذ يحاس الحجاج فكتب اليه قطري يقول :

فراجع أبا جعد ولاتك مغضياً على ظلمة أعشت جميع النواظر
وتب توبة تهدي اليك شهادة فانك ذو ذنب ولست بكافر

ومن أوضح صور الخذلان ما عبرت عنه امرأة في مقارنة عقدتها بين لذة الحيـــاة الجنسية وصعوبة القتال ، ثم انهت ذلك بقولها ـ وهي ترتد عما أخذت فيه ـ :

مروا بنا نرجع الى ديننا فكل دين غيره باطل
وملة الضحاك متروكة لا يجتبيها أحد عاقل

* * *

وفي عمران بن حطان تتبدى حقيقة هذا الشعر الذي انصهرت فيه جميع العواطف الدينية ـ انصهرت دون أن تموت ـ ؛ فعمران يتميز عن قطري بن الفجاءة، لأن قطرياً ارتطم بالذات حتى اصبحت محوراً لشعوره، فاذا ناجى نفسه أو تحدث عن الحرب أو عن الموت والاقدام فما ذلك إلا لكي يصور ذاته ويفتخر بما فعل ، كما في قوله :

لا يركنن أحد إلى الاحجام يوم الوغى متخوفاً لحمام
فلقد أراني للرماح دريئة من عن يميني تارة وأمامي
حتى خضبت بما تحدر من دمي اكناف سرجي أوعنان لجامي
ثم انصرفت وقد أصبت ولم أصب جذع البصيرة قارح الاقدام

فالشاعر يحبب القتال الى الناس وينفرهم من الاحجام ، ولكنه يدير الكلام حول

نفسه ليفخر بفروسيته وشجاعته ، وهكذا هو قطري في كل أشعاره لا يستطيع أن يخفي حقيقة شعوره بانسانيته وتفردها ، وإن كان يقر للأبطال من أعدائه ببطولتهم ، ولا يحاول أن يخفي علاقته بحب الحياة أحياناً ، كما في قوله :

لعمرك اني في الحياة لزاهد ... وفي العيش ما لم ألق أم حكيم
من الخفرات البيض لم ير مثلها ... شفـــاء لذي بث ولا لسقيم

وعمران يتميز عن الطرماح ، بل إن من غير الانصاف أن نقابل بين الشاعرين ، لأن الطرماح شارك في المنازعات القبلية وأسرف في العصبية كما أسرف في هجاء القبائل الاخرى وفي الفخر بنفسه ؛ وبين حين وآخر كانت تستيقظ في صدره بعض المشاعر الزهدية ، إلا أن كلبه على المال يباعد بينه وبين الزهد الدقيق ، فهو من أجل ذلك كله لا يمثل الروح الخارجية .

أما عمران فيمثل حقيقة الزهد الخارجي لأن الصراع في نفسه أقوى منه في نفوس الشعراء الآخرين من الخوارج ، ولأن النزعة الأنسانية في شعره ليست تياراً سطحياً كما هي عند قطري ، بل هي تيار عميق لا بد لرؤيته من التغلغل في اعماق نفسه .

ولم يكن عمران من الخوارج ـ أول الامر ـ ولكنه تحول الى المذهب الخارجي في سن غير مبكرة ، وهذا التحول يعتمد على عامل نفسي اذ تصرح لنا الروايات [١] أن هذا الشخص الدميم رأى جمرة ابنة عمه وأحبها ، وكانت خارجية ، فسعى ليردها عن مذهبها ، وبدلاً من أن ينجح في ذلك نجحت هي في تحويله الى مذهب الخوارج ؛ ومانظن أن قوة الاقناع المنطقي هي التي أثرت في نفسه بقدر ما كان لجمال جمرة من أثر .

---

(١) ما يجيء هنا من أخبار عمران فانما هو مستمد من ترجمته المدرجة في تاريخ ابن عساكر .

ففي سبيلها ـ بادىء الأمر ـ اعتنق مذهباً جديداً ؛ إلا أن الاندفاع الجديد لم يمنحه القدرة على تقبل الاستشهاد ، فأصبح كل شيء يهون في سبيل جمرة إلا الموت فانه لا يهون ـ من أجل الاحتفاظ بجمرة ـ ولذلك آمن عمران بالقعود ، وظل بعيداً عن القتال ، يفر بنفسه من بلد الى آخر لينجو من عقاب السلطان . ومعنى ذلك أن عمراناً كان يحب الحياة في أعماق نفسه ، ومن أصرح الشعر الذي عبر به عن هذا الحب قوله :

اذا ما تذكرت الحياة وطيبها الي جرى دمع من العين غاسق

وكان الزوجان غير المتكافئين يشعران بالفوارق بينهما ، فكانت الزوجة تعابث زوجها وتقول له أحياناً : أنا وأنت في الجنة لانك أعطيت مثلي فشكرت ، وأعطيت مثلك فصبرت ؛ وفي سبيل التدليل على ذلك الشكر كان عمران يقدم كل شيء إلا روحه ، وكان ينتقل بزوجه من مكان الى آخر ، وهي تزداد في نظره حسناً ، فيزداد قلبه بها تعلقاً ؛ واكثر ما كان يفتنه فيها ذلك الخال الذي كان يزين وجهها ، وعمران يستجمله فيقبله ؛ ومن الحق أن هذا الحب أثمر الوفاء ، فحين توفي عمران عن زوجه خطبها آخر فأبت أن تتزوجه ، وعمدت الى الخال الذي كان يحبه عمران فقطعته وقالت : والله لا ينظر اليه أحد بعد عمران . لكن هذا الحب لم يمنع جمرة من أن تنتقد زوجها اذا حاد عن مبدأه ، حتى أصبحت في حياته موجهاً كبيراً ؛ واذا كان الشعراء الآخرون من الزهاد يلتفتون إلى نفوسهم ويناجونها ويعرضون عليها آلامهم ، فان جمرة في شعر عمران حلت محل النفس ، فاليها يجهر الشاعر بحيرته ، واليها يفزع حين يشعر بتآسي الحياة من حوله ، واليها يتحدث بآرائه وعقيدته ، وبين يديها يبكي اخوانه الذين كانت تبتلعهم الحروب . ولو عرفنا عن طفولة عمران شيئاً واضحاً لاستطعنا أن نفسر هذا التعلق ، وربما لم نتردد حينئذ في أن نقول : انه وجد في جمرة أماً جديدة ، تحققت على يديها عودته الى الطفولة . فلم تكن جمرة رقيباً قاسياً وانما كانت ظلاً يفيء اليه الشاعر حين تعييه مشكلات الحياة ويضيق ذرعاً بأمر الفناء .

استمع اليه يقول :

يا جمر يا جمر لا يطمح بك الأمل ... فقـــد يكذب ظن الآمل الأجل
يا جمر كيف يذوق الخفض معترف ... بالموت والموت فيما بعـــده جلل
كيف أواسيك والاحداث مقبلة ... فيها لكل امرىء عن غيره شغل

تجد أن جمرة هي نفس عمران ، فليس الأمل كما يتصوره قد طمح بها وانما طمح بنفسه ، وهو يحاول أن ينجو من هذا الصراع القاتل الذي وضع العيش والموت على طرفي نقيض؛ وخفض العيش في ظل الزوجة المحبوبة العاقلة المخلصة لا ينغصه إلا الموت، وأهم ما يعيبه أنه يعجز عن مواساتها يوم يصبح كل انسان مشغولاً بنفسه . إلا أن الشاعر عاد يطمئن هذه النفس بأن الموت نفسه سيموت :

لا يعجز الموت شيء دون خالقه ... والموت فان اذا ما ناله الاجل

وقد عجب الاقدمون كيف اهتدى هذا البدوي الساذج إلى أن يميت الموت ـ كلمة قال مثلها من بعد الشاعر الانجليزي دُنْ Donne حين صرخ ذات مرة : « أيهـــا الموت ! انك ميت لا محالة » Death , thou shalt die

ومرة أخرى تقف جمرة والموت متقابلين في نفس عمران فيثير هذا التقابل نغمة من أشجى النغمات في الشعر الخارجي سكب فيها عمران حزنه وتفجعه مخاطباً زوجه :

ان كنت كارهة للموت فارتحلي ... ثم اطلبي أهل أرض لا يموتونا
فلست واجدة أرضاً بها بشر ... إلا يروحون أفواجاً ويغدونا
يا جمر قد مات مرداس واخوته ... وقبل موتهم مـــات النبيونا
يا جمر لو سلمت نفس مطهرة ... من حادث لم يزل يا جمر يعيينا
اذن لدامت بمرداس سلامته ... وما نعاه بذات الغصن ناعونا

وهذه الصيحة المتألمة المنبعثة من أعماق القلب تصور لنـــا كيف تتنازع عواطف عمران حقيقتان : حقيقة الصديق ـ الامام ـ المثل الاعلى وهو مرداس ، وحقيقـــة المرأة الجميلة التي وجودها يزين الحياة في عينيه ؛ ومرة أخرى نرى أن الكاره للموت

ليس هو جمرة وانما نفس عمران ، ولكنا نعرف أن مقتل مرداس كان من اكبر الاحداث التي أثرت في نفسه ، حتى ليخبرنا أنه بغضه في الحياة وحبب اليه الخروج :

لقد زاد الحياة الي بغضاً ... وحباً للخروج أبو بلال
أحاذر أن أموت على فراشي ... وأرجو الموت تحت ذرى العوالي
ولو أني علمت بأن حتفـــي ... كحتف أبي بلال لم أبـــال

وقد تغير كل شيء بعد ذهاب مرداس ، وأصبح عمران ينكر بعده كل ما قد كان يعرفه . « ما الناس بعدك يا مرداس بالناس » [١]

وكان هذا الذي يتنازع عمران من التفات إلى جمرة والتفات إلى مرداس، يكسب شعره أسى بالغاً ، ويؤثر في نظرته الى الوجود فيمنحها عمقاً فلسفياً لا يوجد عند غيره من شعراء الخوارج . ومن جراء هذا الصراع استطاع أن يعبر تعبيراً عميقاً عن حب الحياة حين صور تعلق الخلق بها حتى العراة الجائعون الذين هم أحق الناس باليأس من أمرها :

أرى أشقياء الناس لا يسأمونها ... على أنهم فيها عراة وجوع

ويقول في قصيدة أخرى :

أرانا لا نمل العيش فيها ... وأولعنا بحرص وانتظار
ولا تبقى ولا نبقى عليها ... ولا بالأمر نأخذ بالخيار

وهكذا يظهر لنا عمران شاعراً متأملا ، تجري في شعره بعض الملاحظ النفسية الدقيقة عن حياة الناس وعلاقاتهم ، وبهذا العمق في النظرة الى الحيـاة والموت وفهم الطبيعة الانسانية قل أن نجد لعمران مثيلاً لا بين شعراء الزهد فحسب بل بين شعراء عصره عامة ، وهو في مراثيه لمرداس وتحليله لشخصية الخارجي المثالي ، وفي استطالة

---

(١) انظر الحديث عن أثر أبي بلال في نفسية عمران في كتاب : أدب الخوارج : ٨٩

الحياة ، ووقفته من الصراع بين البقـــاء والفناء أصدق من يمثل الزهد الثوري والشعر الخارجي ؛ وبالجملة لست أرى الآمدي مبالغاً كثيراً حين قال فيه : إنه أشعر الناس في الزهد [١] ، فاذا لم يكن من الحق أن نميزه بهذه المبالغة في جميع العصور ـ حتى عصر الآمدي ـ فليكن ذلك منصرفاً اليه في عصره وحده

* * *

إلى هذا الحد تحدثت عن التلازم بين العقيدة الخارجية والشعر الخارجي والآثار الموجبة والسالبة التي نجمت عن هذا التلازم ، ويقتضيني المقـــام أن أقول كلمة في اضطلاع ذلك الشعر بنقد الحياة عامة ، ومهاجمـــة عيوب المجتمع وعيوب الدولة . فمن صور ذلك النقد الثورة على الحرص والجشع وحشد الأموال ، وهذا يتبين في قول الطرماح :

عجباً ما عجبت للجامع المال يباهي به ويرتفده
ويضيع الذي يصيره الله اليه فليس يعتقـــده
يوم لا ينفع المخول ذا الثروة خلانـــه ولا ولده
يوم يؤتى به وخصماه وسط الجن والانس رجله ويده

وفي قول عمران :

حتى متى تسقى النفوس بكاسها ريب المنون وأنت لاه ترتع
فتزودن ليوم فقرك دائباً واجمع لنفسك لا لغيرك تجمع

ولكن نقد الاغنياء في شعر الخوارج قليل ، وأعتقد أن قلته لا تعود لضياع معظم ذلك الشعر بقدر ما تعود الى طبيعة الجماعة الخارجية نفسها ، من حيث أنها لم تشك

---

(١) المؤتلف والمختلف رقم : ٢٤٥ ، ص : ٩١

التفاوت بين الغنى والفقر ، وكان التعاطف بين أفرادها يؤكد معنى الرضى ويجعلها أقل شعوراً بالحاجة للثورة على الغنى . كذلك يقول شاعر الخوارج :

متراحمين ذوو يسارهم ... يتعطفون على ذوي الفقر
وذوو خصاصتهم كأنهم ... من صدق عفتهم ذوو فقر
متجملين بطيب خيمهم ... لا يهلعون لنبوة الدهر
فكذاك مثريهم ومقترهم ... اكرم بمقترهم وبالمثري

فاذا كان في الشعر الخارجي نقد لذوي الثراء فهو موجـــه الى خارج محيط الدائرة الخارجية .

ولكن شعر الخوارج كان عنيفاً في محاربة العيوب الاجتماعيـة الاخرى من نفاق وكبر وتملق ، لأن زهاد الخوارج كانوا على شعور تام بمظاهر التناقض في المجتمع مـــن حولهم ، وكانت صلابتهم في المحافظة على المبدأ تظهر الفرق بينهم وبين الآخرين ، فالجند الاسلامي – في سبيل الرزق – قد يحارب اليوم مع ابن الزبير ويرى أنه أمير المؤمنين فاذا عرض لهم ذكر عبد الملك شتموه وعابوه ، وبعد يوم من مقتل ابن الزبير يصبح الجند في صف الدولة . وقد امتحن الخوارج أولئك الجنود وهم مرابطون يحاربون باسم ابن الزبير دون أن يعلموا بمقتله وسألوهم عنه وعن عبد الملك فأثنوا على الاول وعابوا الثاني ، وفي اليوم الثاني علم الجند بمقتل صاحبهم وأن تبعيتهم انتقلت الى عبدالملك فجاء الخوارج يهزأون بهم ويسألونهم رأيهم في الخليفة الجديد فما يحيرون جواباً[١] وهذه الحياة الآلية غريبة في نظر المتحمسين الذين يموتون من أجل العقيدة ، وهي النقيصة الكبرى التي كان يبصرها الخوارج في مجتمع أعدائهم . وكان مما أثار عمران الى نقد هذه الناحية أنه سمع بعض الجند يقولون : وما لنـا لا نقاتل الخوارج ؟ أليست أعطياتنا دارّة ؟ فقال عمران يتهكم بهذه الحال [٢] :

---

(١) تاريخ الطبري ٥ : ١٥ – ١٦
(٢) انساب الاشراف ٧ : ٩٩ ، وياقوت (كسكر) .

فلو بعثت بعض اليهود عليهم يؤمهم أو بعض من قد تنصرا
لقالوا رضينا أن أقمت عطاءنا وأجريت ذاك الفرض من بُرٍّ كسكرا

وعند عمران أيضاً ثورة على التملق الذي تفشى في طبقات الشعراء ودفع بهم الى الكذب من أجل المال ، اذ يقول في من يمدح لينال العطاء :

أيها المادح العباد ليعطى إن لله ما بأيدي العباد
فاسأل الله ما طلبت اليهم وارج فضل المقسم العواد
لاتقل في الجواد ما ليس فيه وتسمي البخيل باسم الجواد

أما في نقد السياسة عامة فنسمع مثل قول عمران :

حتى متى لا نرى عدلاً نعيش به ولا نرى لدعـــاة الحق أعوانا

ومثل قول أبي بلال مرداس بن أدية :

وقد أظهر الجور الولاة وأجمعوا على ظلم أهل الحق بالغدر والكفر

ولا بد لنا من أن نفترض أن شعر الخوارج أثار نقداً اجتماعياً عند غيرهم من الفئات لأنه زاد من حدة الشعور بالنقائص الاجتماعية ، وهذه ظاهرة متكاملة تحتاج دراسة مستقلة . وعلى الجملة يتبين لنا من مراجعة شعر الخوارج أن الموضوعات الشعرية التقليدية فيه قد أصيبت بالاستحالة ، فاستحال المدح في سبيل الرزق ثناء على الشراة أنفسهم ، واقتصر الرثاء على الاخوان والاصدقاء الذين ضحوا بأنفسهم خدمة لعقيدتهم ، وأصبح الهجاء نقداً لروح التخاذل أو الارتداد، ولم يبق هنالك إلا أثارة يسيرة من غزل وهجاء فردي والا فخر موجه تحت راية المبادىء السامية والرغبة في الاستشهاد.